مرحلة متأخرة من مراحل الحرب بدأ المهلهل كأنما أسكرته نشوة النصر، فأسرف فى القتل ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر أوقع ، فاجتمعت قبائل بكر إلى الحارث وقالوا له : قد فنى قومك ، فأرسل ابنه بجيرا إلى المهلهل فى محاولة لوضع نهاية لهذه الحرب التى طال أمدها ، وجرت الخراب على ربيعة كلها ، وقال له : قل له أنى قد اعتزلت قومى لأنهم ظلموك ، وخليتك وإياهم ، وقد أدركت تأرك وقتلت قومك ، ولكن المهلهل قتل بجيراً وقال له : بؤ بشسع نعل كليب ، وبلغ الحارث النبأ ، فثارت ثائرته وقرر أن يدخل المعركة ، وانطلق إلى فرسه «النعامة » فركبها وتولى أمر بكر ، وأنشد فى ذلك قصيدته العنيفة الثائرة التى يقول فيها.

قربًا مربط النعامة منى لا ... لقحت حرب وائل عن حيال
بجير أغنني قتيلا ولا رهط ... كليب تزاجروا عن ضلال
لهف نفسي علي بجير إذا ما ... جالت الخيل يوم حرب عضال
قتلوه بشسع نعل كليب ... إن قتل الكريم بالشسع غال
يابجير الخيرات لا صلح حتى ... تملأ البيد من رؤوس الرجال
لم أكن من جُناتها علم الله ... وإنى بحرها اليوم صال

ويدخول الحارث القتال بدأ ميزان المعركة يتغير ، فقد توالت انتصارات بكر بقيادته وبدأت نذر الهزيمة تلوح لتغلب فى الأفق ، وفى أحد هذه الأيام وهو «يوم قضة » أو كما يسمى أحيانا - « يوم تحلاق اللمم » وقع المهلهل فى أسر الحارث وهو لايعرفه ، فقال له : دلنى على عدى بن ربيعة وأخلى عنك ، فقال المهلهل عليك العهود بذلك أن دللتك عليه ؟ فقال : نعم . فقال المهلهل: فأنا عدى . ولم يستطع الحارث أن ينقض العهد الذى أعطاه له ،فجز ناصيته وتركه آسفا ، وعاد المهلهل : إلى قومه يجرر أذيال الهزيمة ، وكأنما أدرك أن أيام النصر قد ولت إلى غير رجعة ، فقرر أن يرتحل بأهله بعيداً عن قومه لعل نار الحرب تنطفئ وتعود الحياة إلى ما كانت عليه من قبل .